مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية) المجلد التاسع عشر، العدد الأول، ص371ص401 يناير2011
ISSN 1726-6807 http://www.iugaza.edu.ps/ar/periodical/

الإسراف في ضوء القرآن الكريم

"دراسة قرآنية موضوعية"

د. محمود هاشم محمود عنبر
الأستاذ المساعد في قسم التفسير وعلوم القرآن
كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية – غزة

ملخص: هذه الدراسة قائمة على منهج التفسير الموضوعي نتعرف من خلال هذه الدراسة على معنى الإسراف لغة واصطلاحاً ، والعلاقة بين المعاني اللغوية والاصطلاحية ، وورود (أسرف) ومشتقاتها في السياق القرآني من خلال الآيات المكية والمدنية والموضوعات التي ناسبت كل مرحلة من هاتين المرحلتين ، كما سنتعرف من خلال هذه الدراسة على صور الإسراف وميادينه ونماذج للمسرفين ذكرها القرآن الكريم على سبيل أخذ العبر والعظات مما حدث لهم ، وكذلك التعرف على عقوبات المسرفين الدنيوية والأخروية ، وكل ذلك في إطار دراسة قرآنية موضوعية ، وتختم الدراسة بأهم النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال البحث .

This study based on the approach the subject of Thematic interpretation of Quranic entitled
(Excessive in light of the Quran: Qur'anic Thematic study)

Abstract: know through this study on the meaning of excessive language and idiomatically, and the relationship between the meanings of language and conventional, and the receipt of ladle and its derivatives in the context of the Qur'an through the verses of the Meccan and civil issues that fitted every stage of these two phases, as you will learn through this study images of extravagance and the fields and models, for those mentioned Quran for taking lessons and sermons, which happened to them, and to identify the sanctions extravagant and mundane world beyond, all within the framework of Qur'anic Study objective, the study concludes the main results reached by the researcher during the research.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ... أما بعد :

فقد خلق الله I الخلق من أجل عبادته ، واستخلفهم على حمل أمانة دينه ورفع راية توحيده ، وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الشرائع والتكاليف التي تنظم حياتهم ، وتقوم العلاقة بينهم ، وتحدد العلاقة التي تربطهم بخالقهم وبارئهم ، وقد أمر الله I عباده أن يتعاملوا مع هذه التكاليف في حدود طاقاتهم ، وفي إطار بشريتهم فخاطبهم قائلاً : [**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ...] {البقرة:286} من غير إفراط في العبادة وإسراف في أدائها ، وفي مقابل ذلك نهى الله I عن التفريط في دينه والإسراف في المعاصي وحرف

البوصلة إلى غير الجهة والهدف الذي أراده الله لعباده حيث يقول : **[وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ]** {الذاريات:56} .

وعلى هذا فالإسراف صفة ذميمة وخلق يبغضه الله سبحانه سواء كان الإسراف في المباحات أو المحرمات لأن كلاً منهما انحراف عن منهج الله وإفراط أو تفريط في دين الله ، ومع ذلك فإن رحمة الله الواسعة بعباده الشاردين في دروب التيه والضلال ، المنغمسين في مستنقعات الإسراف بكل صوره وأشكاله ، فهو سبحانه يوجه لهم دعوة مفتوحة إلى الأمل والرجاء والثقة بعفوه ، فالله يعلم ضعف عباده ، وأن الشيطان يقعد لهم كل مرصد ، فيمد الله لهم العون ويوسع لهم أبواب الرحمة ، ولا يأخذهم بمعصية حتى يهيئ لهم جميع الوسائل لإصلاح الأخطاء وتقويمها وإبعادهم من اليأس والقنوط ، وفي ذلك يخاطبهم الله بقوله : **[قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ]**{الزُّمر:53} .

وتتبع أهمية هذه الدراسة كونها تبحث في موضوع من موضوعات القرآن الكريم يظهر معنى الإسراف في اللغة والاصطلاح ، وتبين صور الإسراف في القرآن الكريم وتضرب أمثلة لنماذج من المسرفين ذكرها القرآن الكريم لأخذ العبر والعظات ، كما تتحدث هذه الدراسة حول عقوبات المسرفين الدنيوية والأخروية ، فهذه الدراسة القرآنية دراسة هامة لها علاقة وطيدة بالواقع المعيش حيث تعيش الأمة الإسلامية زماناً ابتعد كثير من أبنائها عن تعاليم دينهم ، فمنهم من أسرف في المعاصي متناسياً بأن لهذا الكون رقيباً لا يغفل ولا ينام ، ومنهم من أسرف في المباحات إلى درجة التبذير والإفراط ، واللذين يؤديان إلى الكفر بنعم الله واستخدامها في غير الوجوه المستحقة متجاوزين الحدود التي ترضي خالقهم والمنعم عليهم بهذه النعم ، فهذه الدراسة لها هدف مهم وغاية سامية سيحاول الباحث تحقيقها من خلال هذه السطور ، وهذا الجهد المتواضع وهو توجيه البوصلة توجيهاً سليماً يرضي ربنا سبحانه من حيث توجيه الناس إلى التوازن في التعامل مع الأحكام الشرعية من غير إفراط ولا تفريط ، ومن غير إسراف أو تقتير بحيث لا يقع المسلم في الإسراف في المباحات فيكون مبذراً مفرطاً أو يقع في المعاصي فيكون عاصياً ناهيك عن الإسراف فيها والعياذ بالله .

وتحقيقاً لهذه الأهداف والغايات فقد جعل الباحث هذه الدراسة في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

المقدمة : وقد اشتملت على أهمية البحث وغايته وهيكليته .

المبحث الأول : **وقفات مع أسرف ومشتقاتها .**

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : معنى الإسراف لغة واصطلاحاً ، وفيه :

أولاً : معنى الإسراف لغة .

ثانياً : معنى الإسراف اصطلاحاً .

ثالثاً : العلاقة بين المعاني اللغوية والاصطلاحية .

المطلب الثاني : أسرف ومشتقاتها في السياق القرآني ، وفيه :

أولاً : أسرف ومشتقاتها في الآيات المكية .

ثانياً : أسرف ومشتقاتها في الآيات المدنية .

المبحث الثاني : صور الإسراف ونماذج من المسرفين في ضوء القرآن الكريم .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : صور الإسراف في ضوء القرآن الكريم ، وفيه :

أولاً : الإسراف في النفقة .

ثانياً : الإسراف في الزكاة والصدقات.

ثالثاً : الإسراف في القتل .

رابعاً : **الإسراف في مال اليتامى .**

المطلب الثاني : نماذج من المسرفين في ضوء القرآن الكريم ، وفيه :

أولاً : قوم نبي الله لوط u .

ثانياً : فرعون وملؤه .

ثالثاً : بنو إسرائيل .

المبحث الثالث : عقوبات المسرفين الدنيوية والأخروية .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : عقوبات المسرفين الدنيوية ، وفيه :

أولاً : عدم هدايتهم وإضلالهم .

ثانياً : ضنك عيشهم .

ثالثاً : تزيين أعمالهم لهم .

رابعاً : **إهلاكهم واستئصالهم .**

المطلب الثاني : عقوبات المسرفين الأخروية ، وفيه :

أولاً : حشرهم يوم القيامة عمياناً .

ثانياً : المسرفون هم أصحاب النار .

الخاتمة : وتشتمل على أهم النتائج التي سيتوصل إليها الباحث .

المبحث الأول

وقفات مع أسرف ومشتقاتها

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : معنى الإسراف لغة واصطلاحاً :

أولاً : الإسراف لغة :

السَرَفُ والإسْرَافُ مجاوزة القصد ، وقيل السَرَفُ : الخطأ ووضع الشيء في غير حقه، وسَرِفَ الشيء بالكسر سَرَفاً : أغفله وأخطأه وجهله ، ويقال فلان سَرِفُ الفؤاد أي مخطئ الفؤاد وغافلُهُ ، وسَرِفَ العقل : قليله ، كما يقال أسْرَفَ الرجلُ إذا جاوز الحد ، وأسْرَفَ إذا أخطأ ، وأسرف إذا غفل ، وأسرف إذا جهل ، وأما السَرَفُ الذي نهى الله عنه هو ما أنفق في غير طاعة الله قليلاً كان أو كثيراً والإسراف في النفقة التبذير (1) .

ويقول الإمام الزمخشري : السَرَفُ : الإفساد ، ويقال مجازاً هذه شاة مسروفة إذا استئصلت أذنها ، وسَرَفت المرأة ولدها أفسدته بكثرة اللبن ومجاوزة الحد في الإرضاع ، ورجلٌ سَرِفُ العقل والفؤاد أي فاسده، والسَرَفُ في النفقة هو مجاوزة الحد فيها (2) .

وورد في المعجم الوسيط : سَرِفَ الطعام سَرَفاً ائتكل حتى كأن السُرْفَةَ أصابته ، وأسْرَفَ : جاوز الحدَّ ، يقال أسرفَ في ماله ، وأسرف في الكلام ، وأسرف في القتل إذا جاوز حدَّه في هذه الأمور .

والسَّرفُ : الولوع بالشيء ، ويقال سَرِفُ العقل قليله ، وسَرِفُ الفؤاد وغافله (3) .

---

(1) انظر : لسان العرب، للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ج9، ص148، 149 ، دار صادر، بيروت .

(2) انظر : أساس البلاغة – للإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود ، ص209، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

(3) انظر: معجم مقاييس اللغة ، مجمع اللغة العربية ، ج1، ص443، 444 ، الطبعة الثالثة .

فمن خلال هذه المعاني اللغوية يتبين للباحث أن الإسراف في اللغة قد يرد بمعان عديدة منها مجاوزة القصد والحد ، والخطأ ووضع الشيء في غير موضعه وحقه وبمعنى الجهل والغفلة والقلة والإفساد والولوع بالشيء .

ثانياً : الإسراف اصطلاحاً :

تقاربت تعريفات علماء التفسير للإسراف في الاصطلاح وذلك على النحو التالي :

1- عرف الإمام القرطبي الإسراف بقوله : هو "الإفراط في الشيء ومجاوزة الحد " (1) .

2- وقد عرفه الإمام الشوكاني بقوله : "الإسراف ما فيه مجاوزة للحد" (2) .

3- وعرفــه الإمام ابن عاشور بقوله : "الإسراف الإفــراط والإكثار في شيء غير محمود"(3) .

ويلاحظ الباحث التشابه شبه التام بين التعريف الأول والثاني حيث عدَّ الإمامان القرطبي والشوكاني أن الإسراف هو مجاوزة الحد عموماً سواء في أمر محمود أو مذموم.

أما الإمام ابن عاشور فقد ربط الإسراف بالأمور غير المحمودة فقط صارفاً النظر عن الإسراف في الأمور المحمودة كالطعام والشراب والنفقة التي اعتبرها الله سبحانه وتعالى تبذيراً وإسرافاً وذلك في قوله تعالى : [... **وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا**] {الإسراء:26}.

وقد وضع الباحث تعريفاً جامعاً مانعاً للإسراف وهو :

"الإفراط ومجاوزة الحد في أمور محمودة أو مذمومة".

ثالثاً : العلاقة بين المعاني اللغوية والاصطلاحية:

من خلال النظر في المعاني اللغوية والاصطلاحية تبين للباحث أن المعاني اللغوية للإسراف أعمّ وأشمل من المعاني الاصطلاحية حيث ورد الإسراف في اللغة بمعنى مجاوزة القصد والحد والخطأ ووضع الشيء في غير موضعه وحقه والجهل والغفلة والقلة والإفساد

---

(1) الجامع لأحكام القرآن – لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبـي، ج4، ص242، دار الحديث القاهرة ، الطبعة الثانية 1996م.

(2) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بـن علـي بـن محمـد الشوكاني، ج1، ص387، الطبعة الثانية، 1964م.

(3) التحرير والتنوير، للأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشـور ، م11، ج24، ص130، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس.

والولوع بالشيء ، بينما مثل المعنى الاصطلاحي معنى واحداً من المعاني اللغوية وهو مجاوزة الحد والإفراط في الشيء وعلى هذا فإن المعنى الاصطلاحي يعدُّ جزءاً من المعاني اللغوية الشاملة.

المطلب الثاني : أسرف ومشتقاتها في السياق القرآني :

وردت لفظة أسرف ومشتقاتها في السياق القرآني في اثنتين وعشرين موضعاً موزعة على إحدى وعشرين آية وسبع عشرة سورة على النحو التالي:

أولاً : أسرف ومشتقاتها في الآيات المكية :

وردت أسرف ومشتقاتها في الآيات المكية في ست عشرة آية موزعة على اثني عشرة سورة وذلك على النحو التالي :

م	الآية	اسم السورة	رقم الآية
1-	[... وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ]	الأعراف	31
2-	[إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ]	الأعراف	81
3-	[وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]	يونس	12
4-	[... وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ]	يونس	83
5-	[... وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا]	الإسراء	33
6-	[وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآَيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى]	طه	127
7-	[ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ]	الأنبياء	9
8-	[وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا]	الفرقان	67
9-	[وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ]	الشعراء	151
10-	[... إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ]	غافر	28
11-	[... كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ]	غافر	34

12-	[لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ]	غافر	43
13-	[قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ]	يس	19
14-	[أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ]	الزخرف	5
15-	[مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ]	الدخان	31
16-	[لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ]	الذاريات	33، 34

ثانياً: أسرف ومشتقاتها في الآيات المدنية :

وردت أسرف ومشتقاتها في الآيات المدنية في ستة مواضع وخمس آيات موزعة على خمس سور على النحو التالي :

م	الآية	اسم السورة	رقم الآية
1-	[وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ...]	آل عمران	147
2-	[... آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ...]	النساء	6
3-	[... جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ]	المائدة	32
4-	[... كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ]	الأنعام	141
5-	[قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ...]	الزمر	53

فمن خلال تتبع الآيات المكية والآيات المدنية التي وردت في سياقها أسرف ومشتقاتها خرج الباحث بالنتائج الآتية :

1- وردت أسرف ومشتقاتها في الآيات المكية في ست عشرة آية واشتملت على الموضوعات الآتية :

أ- نهت الآيات المكية عن الإسراف في القتل الذي كان سائداً في الجاهلية حيث كان ولي المقتول يعمد إلى قتل من لا ذنب له كشقيق القاتل أو أخيه أو ولده أو قتل القاتل بعد أخذ الدية والعفو

أو التمثيل في جثة القاتل بعد قتله وكلها صور من الإسراف في القتل نهى عنها الإسلام منعاً للظلم وحفاظاً على الأبرياء من القتل .

ب- كما وردت أسرف ومشتقاتها في سياق الحديث عن المسرفين في المعاصي من أبناء الأمم الماضية مبينة بأن مصيرهم كان هلاكاً في الدنيا وتوعداً بالعذاب الأليم والخالد في نار جهنم يوم القيامة ، وهي رسالة واضحة وقوية لأهل مكة المتكبرين والصادين عن سبيل الله الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي والكبائر بأن مصيرهم سيكون كمصير تلك الأمم المسرفة وأن مصير زعمائهم كمصير زعماء تلك الأمم.

ج- كما حثت الآيات المكية على الاعتدال في النفقة ونهت عن الإسراف والتبذير في خطوة لتهذيب السلوك وتصحيح المسار وتوجيه الأموال في الوجوه المستحقة وقد جاء هذا التوجيه الإلهي في العهد المكي لتغيير ما اعتاد عليه الناس في الجاهلية من إتلاف الأموال بدافع السخاء والكرم.

2- وردت لفظة أسرف ومشتقاتها في الآيات المدنية في خمس آيات وتحدثت حول الموضوعات الآتية :

أ- نهت الآيات المدنية عن أكل أموال اليتامى إسرافاً وبداراً وهي عادة قبيحة كانت متفشية في الجاهلية .

ب- كما وردت إحدى مشتقات أسرف في الحديث عن إسراف بني إسرائيل في الأرض وقتلهم لأنبيائهم ولبعضهم البعض وكان ذلك مناسباً في العهد المدني ليتعرّف المؤمنون على حقيقة يهود وتاريخهم وماضيهم حتى يحذروا شرهم ويتقوا مكرهم .

ج- كما نهت الآيات المدنية عن الإسراف في الزكاة والصدقة بحيث يزكي صاحب الزرع يوم الحصاد بكل حصاده فيصبح فقيراً يحتاج إلى من يتصدق عليه .

د- كما بينت الآيات المدنية أن الإسراف بأي صورة من صوره معصية توجب التوبة والإنابة ودعت المسرفين على أنفسهم بعدم القنوط من رحمة الله ووعدت التائبين بمغفرة ذنوبهم وقبول توبتهم .

وبهذا يتبين لنا الموضوعات التي تطرقت إليها الآيات المكية والآيات المدنية والتي وردت فيها أسرف ومشتقاتها مناسبة لوضع الدعوة الإسلامية في كل مرحلة من مراحلها .

المبحث الثاني
صور الإسراف ونماذج من المسرفين في ضوء القرآن الكريم

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : **صور الإسراف في ضوء القرآن الكريم .**

أولاً : **الإسراف في النفقة** :

يعد الإسراف درباً من دروب الفساد في الأرض لأن فيه تبديداً للأموال في غير وجوهها المستحقة وجحد لنعمة الله سبحانه بالإضافة إلى ما يحدثه الإسراف من فساد في القلوب والأخلاق واختلال في الحياة الاجتماعية لذلك نهى القرآن الكريم عن الإسراف وبين أن المسرفين فئة لا يحبها الله حيث يقول سبحانه : [**يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ**] {الأعراف:31} .

قال بعض السلف في تفسير هذه الآية : "جمع الله الطب كله في نصف آية" [**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا**]، وروى الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة" [1] .

وروى الإمام أحمد عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله r قال : "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده" [2].

وروى الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب الكندي قال سمعت رسول الله r يقول : "ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه" [3] [4] .

---

(1) رواه البخاري 447/14 ، كتاب اللباس ، باب قول الله تعالى [**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ...**]، حديث رقم 6782 .

(2) رواه الإمام أحمد 181/1 ، حديث رقم 6695 ، مسند عبد الله بن عمر ، قال شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن .

(3) رواه الإمام أحمد 132/4 ، حديث رقم 17225 ، قال شعيب الأرناؤوط : رجاله ثقات غير أن يحيى بن جابر الطائي تكلموا في سماعه من المقداد ، فإن صح سماعه منه فالحديث صحيح وإلا فمنقطع ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة ، تحقيق شعيب الأرناؤوط .

(4) انظر : تفسير القرآن العظيم، للإمام الجليل الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، ج2، ص210.

ويقول الإمام الشوكاني : "أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب ، ونهاهم عن الإسراف، فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب ، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه وهو من أهل النار ... والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعي على نفسه وعلى من يعول مخالفاً لما أمر الله به وأرشد إليه ، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه ، والتبذير مخالف لما شرعه الله لعباده وواقع في النهي القرآني ، وهكذا من حرم حلالاً أو أحل حراماً فإنه يدخل في المسرفين ويخرج عن المقتصدين ، ومن الإسراف الأكل لا لحاجة وفي وقت شبع" (1) .

فالإسراف هو تجاوز الحد المتعارف عليه في الأكل والشرب والمعنى : ولا تسرفوا في الأكل بكثرة أكل اللحوم والدسم لأن ذلك يعود بأضرار على البدن وتنشأ منه أمراض معضلة ، وقد قيل إن هذه الآية قد جمعت أصول حفظ الصحة من جانب الغذاء فالنهي عن السرف نهي إرشاد لا نهي تحريم بقرينة الإباحة اللاحقة في قوله تعالى : **[قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ]** {الأعراف:32} ، ولأن مقدار الإسراف لا ينضبط فلا يتعلق به التكليف ولكن يوكل إلى تدبير الناس مصالحهم ، وهذا راجع إلى معنى القسط الواقع في قوله سابقاً : **[قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالقِسْطِ ...]** {الأعراف:29} ، فإن ترك السرف من معنى العدل(2) .

والباحث يوافق رأي الإمام بن عاشور بأن النهي عن السرف نهي إرشاد وليس نهي تحريم في بعض الحالات ويخالفه في حالات أخرى فإذا تجاوز الإسراف حدود إمكانيات المسرف بحيث أحدث خللاً في التوازن الاقتصادي للأسرة فإن ذلك يدخل في دائرة التبذير غير المحمود ، وكذلك إذا كان الإسراف في ظل وضع اقتصادي صعب بحيث يعيش نسبة من أبناء المجتمع على الكفاف والقلة فالأولى توجيه هذه الأموال الزائدة لفقراء المجتمع ومساكينهم لنقلهم من حالة الفقر إلى حالة الكفاية ، فالإسراف والتبذير في ظل هذا الوضع الاقتصادي يصل إلى درجة التحريم ويكون المسرف والمبذر من إخوان الشياطين لاشتراكهم معهم في جحد نعمة الله سبحانه ؛ لذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن التبذير ووصف المبذرين بأنهم إخوان الشياطين حيث يقول سبحانه

---

(1) فتح القدير، ج2، ص200.

(2) انظر : التحرير والتنوير، ابن عاشور ، م5، ج8، ص95.

[وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا، إِنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا] {الإسراء:26،27} .

فالتبذير المنهي عنه في هذه الآية إنفاق من المال في غير حقه ، وقال بعض السلف : هو أخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه وهو الإسراف ، وهو حرام لقوله تعالى : **[إِنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ]** {الإسراء:27} ، يعني أنهم في حكمهم إذ المبذر ساع في الإفساد كالشياطين ، فمن أنفــق ماله في الشهوات زائداً على قدر الحاجات ، وعرضه ذلك للنفاد فهو مبذر ومن أنفق درهماً في حرام فهو مبذر (1) .

وأما عن حدود الإسراف والتبذير فيقول فالقرآن الكريم ينهى عن التبذير والذي هو إنفاق المال في غير حق ، فلو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً ، فليست هي الكثرة والقلة في الإنفاق إنما هو موضع الإنفاق ومن ثم كان المبذرون إخوان الشياطين لأنهــم ينفقون في الباطل ، وينفقون في الشر ، وينفقون في المعصية، فهم رفقاء الشياطين وأصحابهم ، فالشيطان لا يؤدي حق النعمة ، كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة وحقها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين (2) .

فالتوازن في النفقة هو القاعدة الكبرى في النهج الإسلامي والغلو كالتفريط يخل بالتوازن الاقتصادي، فالتوازن والاعتدال في النفقة سمة من سمات الإيمان يحققها الإسلام في الأفراد والجماعات ، فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع ، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله ، والإسراف والتقتير يحدثان اختلالاً في المحيط الاجتماعي والحياة الاقتصادية بالإضافة إلى فساد القلوب والأخلاق (3) ، لذلك أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالتوازن والتوسط في النفقة فقال سبحانه : **[وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا]** {الإسراء:29} .

كما مدح الله سبحانه وتعالى المحافظين على هذه الوسطية وهذا التوازن وعدهم من عباد الرحمن ، فقال سبحانه : **[وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ... وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا]** {الفرقان:63-67} .

---

(1) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ج10، ص252، 253.

(2) انظر : في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج4 ، ص2222، دار الشروق ، ط17 ، 1992م.

(3) انظر : المرجع السابق ، ج5، ص2579.

ثانياً : الإسراف في الزكاة والصدقات :

فالإسراف في ميدان الزكاة والصدقات صورة من صور الإسراف التي نهى عنها السياق القرآني فقال سبحانه : [**... كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ**] {الأنعام:141} .

اختلفت آراء السلف حول معنى [**وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**] فذهب بعضهم إلى أن المقصود بها الزكاة المفروضة واختلفوا في المقدار بحسب السقي من السماء أو العين بين العشر ونصف العشر وذهب بعض العلماء أن المقصود به حق سوى الزكاة فرض يوم الحصاد وهو إطعام من حضر من الفقراء والمساكين وأما قوله تعالى : [**وَلَا تُسْرِفُوا**] بعد قوله [**وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**] فقد نزلت في ثابت بن قيس بن شماس الذي قطف ثمار خمسمائة نخلة في يوم واحد ووزعها على الفقراء والمساكين ولم يترك لأهله شيئاً ، فنزلت الآية وفي ذلك يقول السدي : معناه لا تعطوا أموالكم وتقعدوا فقراء ، وقال الزجاج : فعلى هذا لو أعطى الإنسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئاً فقد أسرف (1) .

ويقول ابن كثير في تفسيره الآية : قوله [**وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ**] معناه لا تسرفوا في الإعطاء فتعطوا فوق المعروف ، وقال السدي في قوله [**وَلَا تُسْرِفُوا**] : لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء ، وقال ابن جريج نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جذَّ نخلاً له فقال لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة فأنزل الله تعالى : [**وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ**] وقد اختار ابن جرير قول عطاء أنه نهي عن الإسراف في كل شيء ، ولا شك أنه صحيح لكن الظاهر والله أعلم من سياق الآية حيث قال تعالى : [**كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا**] أن يكون عائداً على الأكل أي لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن (2) .

ويرى الباحث أن رأي ابن جرير هو رأي صائب وهو أن النهي عن السرف هو نهي عن الإسراف في كل شيء يتجاوز فيه حدود الله وأوامره ونواهيه لكن النهي في هذا الموضع بالذات مقترن بقرينة تدل عليه في سياق الآية وهي قوله تعالى [**كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ**] مما يدل

---

(1) انظر : لباب التأويل في معاني التنزيل ، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن ج2، ص164، 165 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1995م.

(2) انظر : تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ج2، ص182.

على أن السرف المنهي عنه في هذه الآية هو السرف في الأكل وهو ما ذهب إليه الإمام ابن كثير ويرجحه ويؤيده الباحث في هذا الترجيح ويميل إليه .

ويؤيد ذلك ما ذهب إليه الإمام محمد الطاهر بن عاشور حيث يقول : وقوله **[وَلَا تُسْرِفُوا]** عطف على **[كُلُوا]** أي كلوا غير مسرفين ، وهو نهي إرشاد وإصلاح ، أي لا تسرفوا في الأكل ، فالإسراف إذا اعتاده المرء حمله على التوسع في تحصيل المرغوبات فيرتكب لذلك مذمات كثيرة ، وينتقل من ملذة إلى ملذة فلا يقف عند حد ، وقيل عطف على **[وَآَتُوا حَقَّهُ]** أي ولا تسرفوا فيما بقي بعد إتيان حقه فتنفقوا أكثر مما يجب وهو لا يكون إلا في الإنفاق والأكل ونحوه ، وقوله **[إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ]** استئناف قصد به تعميم حكم النهي عن الإسراف ، وأكد "بإن" لزيادة تقرير الحكم فبين أن الإسراف من الأعمال التي لا يحبها ، وهو من الأخلاق التي يلزم الانتهاء عنها ونفي المحبة مختلف المراتب يشتد ويقل بمقدار قوة الإسراف ودرجته (1) .

وأورد الإمام فخر الدين الرازي في معنى الإسراف في هذه الآية أربعة أقوال:

الأول : أن الإنسان إذا أعطى كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئاً فقد أسرف وعلى هذا فمعنى **[وَلَا تُسْرِفُوا]** لا تعطوا كله.

الثاني : قال سعيد بن المسيب **[وَلَا تُسْرِفُوا]**أي لا تمنعوا الصدقة وهذان القولان يشتركان في أن المراد من الإسراف مجاوزة الحد ، إلا أن القول الأول مجاوزة في الإعطاء ، والثاني : مجاوزة في المنع.

والثالث : قال مقاتل معناه لا تشركوا الأصنام في الحرث والأنعام وهذا أيضاً من باب المجاوزة ، لأن من أشرك الأصنام في الحرث والأنعام فقد جاوز ما حد له.

الرابع : قال الزهري معناه : لا تنفقوا في معصية الله تعالى ، قال مجاهد : لو كان أبو قبيس وهو – جبل معروف في الجزيرة العربية – ذهباً فأنفقه رجل في طاعة الله تعالى لم يكن مسرفاً ، ولو أنفق درهماً في معصية الله كان مسرفاً وهذا المعنى أراده حاتم الطائي حين قيل له : لا خير في السرف فقال : لا سرف في الخير (2) .

---

(1) التحرير والتنوير ، م5، ج8، ص122، 123، "بتصرف يسير".

(2) انظر : التفسير الكبير ، للإمام محمد الرازي فخر الدين ، م7 ، ج13 ، ص226 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1993م .

ويرى الباحث أن أقرب المعاني وأنسبها لمعنى الآية هو القول الأول لأن النهي عن الإسراف كان في سياق الحديث عن الأكل من الثمر وأداء زكاته فدل ذلك على أن إنفاق الثمر كله يوم الحصاد وحرمان الأهل والعيال منه بالكلية صورة من صور الإسراف المنهي عنه.

ثالثاً: الإسراف في القتل :

إن قتل النفس البريئة كبيرة تلي الشرك بالله ، فالله واهب الحياة ، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفي الحدود التي يرسمها ، وكل نفس حرام أن تمس بقتل إلا بالحق وهذا الحق ليس متروكاً للرأي ولا متأثراً بالهوى وقد جاء في الصحيحين أن رسول الله **r** قال : "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة"(1) ، فهذه هي الأسباب الثلاثة المبيحة للقتل ، فمن قتل مظلوماً بغير واحد من تلك الأسباب فقد جعل الله لوليه سلطاناً على القاتل من غيـر إسراف في القتل كما قال تعالى : [**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي القَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا**] {الإسراء:33} .

والمراد بالحق الذي استثناه هو ما يباح به قتل الأنفس المعصومة في الأصل إلا بسبب ملتبس بالحق كالقصاص من القاتل والزاني المحصن والمرتد عن دينه والمراد بالسلطان الذي جعله الله لولي المقتول هو التسلط على القاتل إن شاء قتل وإن شاء عفا وإن شاء أخذ الدية ومعنى الإسراف في القتل المنهي عنه في الآية عدم مجاوزة الحد بمجاوزة ما أباحه الله له فيقتل بالواحد اثنين أو جماعة أو يمثل بالقاتل أو يعذبه أو يقتل القاتل بعد أخذ الدية والعفو ، ثم علل النهي عن السرف فقال : [**إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا**] أي مؤيداً معانا أي الولي فإن الله سبحانه نصره بإثبات القصاص له بما أبرزه من الحجج وأوضحه من الأدلة وأمر أهل الولايات بمعونته والقيام بحقه حتى يستوفيه ، ويجوز أن يكون الضمير راجعاً إلى المقتول والمعنى : إن الله نصره بوليه وعلى كلا الوجهين فإن الإسراف في القتل بعد هذه النصرة تجاوز للحد يحرمه الله سبحانه في علاه (2).

ويقول الإمام الزمخشري في معنى الإسراف في القتل : [**فَلَا يُسْرِفْ**] الضمير للولي أي فلا يقتل غير القاتل ولا اثنين والقاتل واحد كعادة الجاهلية كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة وكانوا يقتلون غير القاتل، وقيل معنى الإسراف المثلة ، والضمير في قوله [**إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا**]إما

---

(1) صحيح مسلم 1302/3 ، باب ما يباح به دم المسلم ، حـديث رقـم 1676 ، ط دار إحيـاء التراث العربي ، بيروت ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

(2) انظر: فتح القدير ، للشوكاني ، ج3، ص223.

للولي يعني حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك وبأن الله قد نصره ، بمعونة السلطان وبإظهار المؤمنين على استيفاء القصاص بقتله وينصره في الآخرة على المسرف (1) .

ويقول الأستاذ سيد قطب : وفي مقابل هذا السلطان الكبير ينهاه الإسلام عن الإسراف في القتل استغلالاً لهذا السلطان الذي منحه إياه والإسراف في القتل يكون بتجاوز القاتل إلى سواه ممن لا ذنب لهم كما يقع في الثأر الجاهلي الذي يؤخذ في الآباء والإخوة والأبناء والأقارب بغير ذنب إلا أنهم من أسرة القاتل ، ويكون الإسراف كذلك بالتمثيل بالقاتل ،والولي مسلط على دمه بلا مثلة فالله يكره المثلة والرسول قد نهى عنها ، وقوله **[إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا]** يقضي له الله ، ويؤيده الشرع وينصره الحاكم فليكن عادلاً في قصاصه.

وفي تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل وتجنيد سلطان الشرع وسلطان الحاكم لنصرته تلبية للفطرة البشرية وتهدئة للغليان الذي تستشعره نفس الولي ، الغليان الذي قد يجرفه ويدفعه إلى الضرب يميناً وشمالاً في حمى الغضب والانفعال على غير هدى فأما حين يحس بأن الله قد ولاه على دم القاتل وأن الحاكم مجند لنصرته على القصاص فإن ثائرته تهدأ ونفسه تسكن ويقف عند حد القصاص العادل الهادئ ، ولولي الدم أن يقتص أو يصفح ، وشعور ولي الدم بأنه قادر على كليهما قد يجنح به إلى الصفح والتسامح أما شعوره بأنه مرغم على الصفح فقد يهيج نفسه ويدفع به إلى الغلو والجماح والإسراف (2) .

وبهذا يتبين لنا أن الإسراف في القتل هي عادة الجاهلية نهى عنها الإسلام ، وأن السلطان الذي جعله الله تعالى لولي المقتول لا بد أن يستغل استغلالاً حسناً ويوظف توظيفاً سليماً بعيداً عن الإسراف في القتل الذي قد يتجاوز به الولي الحدود المتاحة له والمساحة التي سمح له أن يتحرك عليها .

رابعاً : الإسراف في مال اليتامى :

اليتيم في الإسلام من فقد أباه ومعيله قبل سن البلوغ ، هذا السن يحتاج صاحبه إلى عناية ورعاية ووصاية على ماله إن كان له مال ، والوصي على مال اليتيم هو أمين عليه يجب أن يتعفف عنه إن كان غنياً وأن يأكل منه بالمعروف إن كان فقيراً محتاجاً ، وقد نظم الله سبحانه

---

(1) انظر : الكشاف للإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، ج2، ص638، 639، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1، 1995.

(2) انظر: في ظلال القرآن ، ج4، ص2225.

عملية إعادة مال اليتيم إليه على مراحل لتعود أمانته إليه حين يصبح قادراً على التصرف به بحكمة وأناة وروية وقد حذر الله الأوصياء من الإسراف والتبذير في أموال اليتامى بغير الواجب المباح لهم في حال فقرهم وفي ذلك يقول جل في علاه: [**وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آَنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا**] {النساء:6} .

نزلت هذه الآية في ثابت بن رفاعة وفي عمه وذلك أن رفاعة توفي وترك ابنه وهو صغير ، فأتى عم ثابت إلى النبي **r** فقال : إن ابن أخي يتيم في حجري فما يحل لي من ماله ، ومتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية (1) .

يقول الإمام القرطبي في معنى الآية : "اختلف العلماء في معنى الاختبار فقيل : هو أن يتأمل الوصي أخلاق يتيمه ويستمع إلى أغراضه ، فيحصل له العلم بنجابته ، والمعرفة بالسعي في مصالحه وضبط ماله ... فإذا توسم الخير قال علماؤنا وغيرهم لا بأس أن يدفع إليه شيئاً من ماله يبيح له التصرف فيه ، فإن نمَّاه وحسن النظر فيه فقد وقع الاختبار ووجب على الوصي تسليم جميع ماله إليه وإن أساء النظر فيه وجب عليه إمساك ماله عنده ، وأما قوله تعالى [**وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا**] فليس المعنى أن أكل مالهم من غير إسراف جائز ، بل المراد ولا تأكلوا أموالهم فإن أكله إسراف ، وبذلك ينهى الله سبحانه وتعالى الأوصياء عن أكل أموال اليتامى بغير المباح لهم إن كانوا فقراء محتاجين (2) .

ويقول الإمام الزمخشري : معنى [**إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا**] لا تفرطوا ولا تسرفوا في إنفاق أموال اليتامى وتقولوا ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا ، ثم قسم الأمر بين أن يكون الوصي غنياً وبين أن يكون فقيراً فالغني يستعف من أكلها ولا يطمع ، ويقتنع بما رزقه الله من الغنى إشفاقاً على اليتيم وإبقاء على ماله (3) .

ويقول الأستاذ سيد قطب : "ويبدو من خلال النص الدقة في الإجراءات التي يتسلم بها اليتامى أموالهم عند الرشد ، كذلك يبدو التشديد في وجوب المسارعة بتسليم أموال اليتامى إليهم بمجرد تبين الرشد بعد البلوغ وتسليمها لهم كاملة سالمة ، والمحافظة عليها في أثناء القيام عليها

---

(1) أسباب النزول ن لأبي الحسن الواحدي ، ص106، دار إحياء التراث العربي.

(2) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، ج5، ص39، 45.

(3) الكشاف، ج1، ص464، بتصرف.

وعدم المبادرة إلى أكلها بالإسراف قبل أن يكبر أصحابها فيتسلموها مع الاستعفاف عن أكل شيء منها مقابل القيام عليها إذا كان الولي غنياً ، والأكل منها في أضيق الحدود إذا كان الولي محتاجاً"[1] .

وبهذا يتبين لنا أن الإسراف في مال اليتيم صورة قبيحة من صور الإسراف لأن فيه خيانة للأمانة واستضعافاً لليتيم ، كما أنه تصرف يدل على جشع الوصي وضعف نزاهته وغياب استشعاره لرقابة ربه .

المطلب الثاني : نماذج من المسرفين في ضوء القرآن الكريم .

بعث الله الرسل إلى الناس لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن دياجير المعاصي والأهواء إلى دروب الخير والطاعات ، ولكن بعض الناس سيطرت عليهم أهواؤهم وعشعشت المعاصي في قلوبهم وعقولهم فأسرفوا على أنفسهم متناسين بأن لهذا الكون رقيباً لا يغفل ولا ينام وأن مردهم إليه وأنهم سيقفون يوماً – طال الأجل أو قصر – للحساب بين يديه ومن هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم وسجل القرآن لنا مخازيهم :

أولاً : قوم لوط u :

وهؤلاء أسرفوا على أنفسهم في معصية دنيئة وهي اللواط حيث بين الله قبح أخلاقهم من خلال قولـــه تعالى **[وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ]** {الأعراف:80، 81} .

ولوط هو ابن هاران بن آزر وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام وكان قد آمن مع إبراهيم u وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أرض سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم وهو إتيان الذكور دون الإناث وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم يقول عمرو بن دينار رحمه الله : ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط لذلك خاطبهم ربهم سبحانه بقوله : **[مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ]**، والذي زاد الأمر تقززاً وقبحاً أن هؤلاء القوم قد عدلوا عن النساء اللاتي خلقهن الله للاستمتاع بهن بالحلال إلى الرجال وهذا إسراف منهم وجهل لأنه وضع الشيء في غير محله [2] .

---

(1) في ظلال القرآن ، ج1، ص586.

(2) انظر : تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ج2، ص230.

ويقول الإمام محمد الطاهر بن عاشور : القوم الذين أرسل إليهم لوط u هم أهل قرية سدوم من أرض كنعان وكانت على شاطئ السديم وهو بحر الملح المسمى بالبحر الميت كما جاء في التوراة في الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين ، حيث أحدث أهل هذه القرية فاحشة استمتاع الرجال بالرجال ، وقد وصفهم الله بالإسراف بطريقة الجملة الاسمية الدالة على الثبات ، أي أنتم قوم تمكن منهم الإسراف في الشهوات حيث اشتهوا شهوة غريبة لما سئموا الشهوات المعتادة وهذه نتيجة الاسترسال في الشهوات حتى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيء، ووجه تسمية هذا الفعل الشنيع فاحشة وإسرافاً أنه يشتمل على مفاسد كثيرة : منها استعمال الشهوة المغروزة في غير ما غرزت عليه ، لأن الله خلق في الإنسان الشهوة لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل حتى يكون الداعي إليه قهري ينساق إليه الإنسان بطبعه ، فقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي وضعها الله لأجله اعتداء على الفطرة وعلى النوع ولأنه يغير خصوصية الرجلة بالنسبة إلى المفعول به إذ يصير في غير المنزلة التي وضعه الله فيها بخلقته ، ولأن فيها امتهاناً محضاً للمفعول به إذ يجعل آلة لقضاء الشهوة لغيره على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة من قضاء الشهوتين معاً ولأنه مفض إلى قطع النسل أو تقليله ، ولأن ذلك الفعل يجلب أضراراً للفاعل والمفعول بسبب استعمال محلين في غير ما خلقا له (1) .

ويربط الأستاذ سيد قطب بين الجاهلية الحديثة التي ترعى هذا التلوث الأخلاقي وجاهلية قوم لوط التي ابتدعت هذا التلوث فيقول : "والإسراف الذي يدمغهم به لوط u هو الإسراف في تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية ، والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة ، فإذا بهم يريقونها ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب، فهي مجرد شهوة شاذة ، لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية ، فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري قبل أن يكون فساداً للأخلاق ، ولا فرق في الحقيقة ، فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية بلا انحراف ولا فساد ، إن التكوين العضوي للأنثى كالتكوين النفسي هو الذي يحقق لذة الفطرة الصادقة للذكر في الالتقاء الذي لا يقصد به مجرد الشهوة ، إنما هذه اللذة المصاحبة له رحمة من الله ونعمة إذ يجعل القيام بتحقيق سنته ومشيئته في امتداد الحياة مصحوباً بلذة تعادل مشقة التكليف فأما التكوين العضوي للذكر بالنسبة للذكر فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة بل إن شعور الاستقذار ليسبق فيمنع مجرد الاتجاه عند الفطرة السليمة فقط فهذه هي الجاهلية الحديثة في أوروبا وفي أمريكا

---

(1) انظر : التحرير والتنوير ، م5، ج8، ص229، 232.

ينتشر فيها هذا الانحراف الجنسي الشاذ انتشاراً ذريعاً بغير مبرر إلا الانحراف عن الاعتقاد الصحيح وعن منهج الحياة الذي يقوم عليه، وقد كانت هناك دعوى عريضة من الأجهزة التي يوجهها اليهود في الأرض لتدمير الحياة الإنسانية لغير اليهود فروجوا وأشاعوا بأن احتجاب المرأة هو الذي ينشر هذه الفاحشة الشاذة في المجتمعات ولكن شهادة الواقع تخرق العيون إذ إن هذه الفاحشة الشاذة يرتفع معدلها بارتفاع نسبة الاختلاط ولا يقتصر نتائج هذا الاختلاط على الشذوذ بين الرجال بل يتعداه إلى الشذوذ بين النساء حتى غدت الحياة الغربية حياة بهائمية (1).

فمن خلال أقوال المفسرين يتبين لنا خطورة هذه الفاحشة الشاذة التي أسرف بها قوم لوط u وكيف أن الحضارة الغربية قد ابتليت بالجاهلية القديمة في مستنقعات الرذيلة وميادين السقوط والانهيار .

ثانياً : فرعون وملؤه :

لقد كان هذا النوع من الإسراف قد تجاوز كل الحدود لأن الذي حمل لوائه هذا الطاغية الذي أله نفسه وأمر الناس بعبادته ، فاستخف قومه فأطاعوه فطغى وتجبر وأسرف في المعاصي وتكبر وقد صور المولى سبحانه إسرافه وتعنته في قوله تعالى : **[فَمَا آَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ المُسْرِفِينَ]** {يونس:83} .

فقوله **[فَمَا آَمَنَ لِمُوسَى]** أي مبدأ أمره **[إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ]**إلا أولاد من أولاد قومه بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفاً من فرعون إلا طائفة من شبانهم ، وقيل الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به ، أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسيا وخازنه وزوجته وماشطته **[عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ]** أي مع خوف منهم ، والضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء أو على أن المراد بفرعون آله كما يقال ربيعة ومضر أو للذرية أو للقوم **[أَنْ يَفْتِنَهُمْ]** أن يعذبهم فرعون ... وإفراده بالضمير للدلالة على أن الخوف من الملأ كان بسببه ، **[وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ]** {يونس:83} لغالب فيها **[وَإِنَّهُ لَمِنَ المُسْرِفِينَ]** في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء (2) .

---

(1) انظر : في ظلال القرآن ، ج3، ص1315، 1316.

(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، للقاضي أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، ج1 ص444، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1999م.

ويقول الإمام الخازن في قوله تعالى : [وَإِنَّهُ لَمِنَ المُسْرِفِينَ] (يعني من المجاوزين الحد لأنه كان عبداً فادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبني إسرائيل) (1) .

ويقول الإمام الفخر الرازي في معنى قوله تعالى : [وَإِنَّهُ لَمِنَ المُسْرِفِينَ] : (المراد أنه كثير القتل كثير التعذيب لمن يخالفه في أمر من الأمور ، والغرض منه بيان السبب في كون أولئك المؤمنين خائفين ، وقيل إنما كان مسرفاً لأنه كان من أخس العبيد فادعى الإلهية) (2) .

وبالإضافة إلى ادعاء الألوهية والربوبية وأمره للناس بعبادته فقد ظهر إسرافه من خلال تقتيله لذكور بني إسرائيل حيث أسرف في قتلهم حفاظاً على كرسيه وعرشه ويصور الله سبحانه وتعالى هذا الإسراف بقوله : **[وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ]** {البقرة:49} .

وفرعون اسم ذلك الملك بعينه ، وقيل بأنه اسم كل ملك من ملوك العمالقة مثل كسرى للفرس وقيصر للروم والنجاشي للحبشة ، وقيل إنَّ الاسم الحقيقي لفرعون الوليد بن مصعب ابن الريان وهذا الطاغية جعل بني إسرائيل خدماً وصنفهم في أعماله، فصنف يبنون ، وصنف يحرثون ويزرعون ، وصنف يتخدمون وان قومه من القبط جنوداً له ، وبالإضافة إلى هذا الاستعباد في العمل كان فرعون يذبح الأطفال ويبقي البنات، وعبر عنهم باسم النساء بالمآل وقد نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون وهم إنما كانوا يفعلون بأمره وسلطانه لتوليتهم ذلك بأنفسهم وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله ، فمن أجل الإفراط في القتل والاستعباد وادعاء الألوهية والربوبية سمى الله فرعون مسرفاً (3) .

ثالثاً: بنو إسرائيل :

وصف الله بني إسرائيل بأقبح الصفات وأخسها وفي مقدمة هذه الصفات قتل الأنبياء ، وقتلهم لبعضهم البعض وقتلهم لغيرهم ، وقد وصف الله سبحانه وتعالى إسرافهم بقوله : **[مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ]** {المائدة:32} .

---

(1) لباب التأويل في معاني التنزيل ، ج2، ص457.

(2) التفسير الكبير ، ج9، ص151.

(3) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ج1 ، ص 390 ، 392.

فهذا تقريع لبني إسرائيل وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بني قينقاع ممن حول المدينة من اليهود والذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدوا من أسروه وودوا من قتلوه وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة حيث يقول : **[وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ]** {البقرة:84، 85} (1) .

ويقول الإمام القرطبي : "أخبر الله عن بني إسرائيل أنهم جاءتهم الرسل بالبينات وأن أكثرهم مجاوزون الحد ، وتاركون أمر الله " (2) .

ويقول الإمام الخازن : (قوله : **[وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ]** يعني : ولقد جاءت بني إسرائيل رسلنا ببيان الأحكام والشرائع والدلالات الواضحات **[ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ]** يعني بعد مجيء الرسل وبعدما كتبنا عليهم تحريم القتل **[فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ]** يعني بالقتل لا ينتهون عنه ، وقيل معناه لمجاوزون حد الحق)(3) .

ويقول الأستاذ سيد قطب : حرف بنو إسرائيل شريعتهم وتجاوزوا حدودها بعدما جاءتهم الرسل بالبينات الواضحة وقد كانوا على عهد رسول الله r وما يزالون يكثر فيهم المسرفون المتجاوزون لحدود شريعتهم والقرآن يسجل عليهم هذا الإسراف والتجاوز والاعتداء بغير عذر (4) .

فمن خلال أقوال المفسرين القدامى والمحدثين يتبين لنا طبيعة اليهود وأخلاقهم وكيف أنهم كانوا وما زالوا يعشقون الإسراف في القتل وإراقة الدماء وإشعال الحروب والإفساد في الأرض وما يحدث على أرض فلسطين ما هو إلا ترجمة لأخلاقهم الذميمة التي تعد امتداداً لأخلاق أسلافهم .

---

(1) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ج2 ، ص47.

(2) الجامع لأحكام القرآن ، ج5، ص144.

(3) لباب التأويل في معاني التنزيل ، ج2 ، ص37.

(4) انظر : في ظلال القرآن ، ج2 ، ص878.

المبحث الثالث
عقوبات المسرفين الدنيوية والأخروية

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : عقوبات المسرفين الدنيوية .

أولاً : عدم هدايتهم وإضلالهم :

فمن عقوبات المسرفين فـي الحياة الدنيا أن الله سبحانه وتعالى لا يهديهم إلى الحق ولا يرشدهم إلى الهدى ولا يشرح صدورهم إلى الإيمان حيث يقول سبحانه [...**إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**] {غافر:28} .

وقد جاءت هذه الفاصلة القرآنية في ختام آية تحدثت عن مؤمن آل فرعون وسأذكر الآية كاملة بسبب اختلاف العلماء في خاتمة الآية وفاصلتها حيث سأتناول تفسيرها بشيء من الإسهاب يقول سبحانه : [**وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**] {غافر:28} .

فجملة [**إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**] يجوز أنها من قول مؤمن آل فرعون فالمقصود منها تعليل قوله : [**وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ**] أي لأن الله لا يقره على كذبه فإن كان كاذباً على الله فلا يلبث أن يفتضح أمره أو يهلكه لأن الله لا يمهل الكاذب عليه ، والمسرف هنا هو المسرف في الكذب ، لأن أعظم الكذب أن يكون على الله ، وإذا كان المراد الإسراف في الكذب تعين أن قوله [**كَذَّابٌ**] عطف بيان إذ ليس ثمة إسراف هنا غير إسراف الكذب، ويجوز أن تكون جملة [**إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي...**] جملة معترضة بين كلامي مؤمن آل فرعون ليست من حكاية كلامه ، وإنما هي قول من جانب الله في قرآنه يقصد منها تزكية هذا الرجل المؤمن الذي هداه الله للحق وأنه تقي صادق فيكون نفي الهداية عن المسرف الكذاب كناية عن تقوى هذا الرجل وصدقه لأنه نطق عن هدى والله لا يعطي الهدى من هو مسرف كذاب [(1)] .

---

(1) انظر : التحرير والتنوير ، م11، ج24 ، ص130، 131.

ويقول الإمام الرازي في تفسيره لقوله تعالى : [**إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**] "ويحتمل أيضاً أن يكون المراد أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى ، كذاب في إقدامه على ادعاء الإلهية والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته بل يبطله ويهدم أمره" (1) .

كما بين الله سبحانه وتعالى أنه يعاقب المسرفين في الدنيا بإضلالهم وغوايتهم وذلك في قوله تعالى:[... **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ**] {غافر:34} .

والمعنى : "فينذرهم بإضلال الله الذي ينتظر كل مسرف مرتاب في عقيدته وقد جاءته معها البينات"(2) .

ويقول الإمام البيضاوي : [**كَذَلِكَ**] مثل ذلك الضلال [**يُضِلُّ اللهُ**] في العصيان ، [**مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ**] شاك فيما تشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك في التقليد" (3) .

وبهذا يتبين لنا أن إضلال المسرفين وعدم هدايتهم من العقوبات التي يعاقبهم الله بها في الدنيا.

ثانياً : ضنك عيشهم :

فمن العقوبات الدنيوية التي يعاقب الله بها المسرفين أنهم يعيشون في الدنيا في ضيق من العيش يعانون الفقــر ويكابــدون من القلة والعوز لقاء تقصيرهم في جنب الله وإسرافهم في معصية الله وفي ذلك يقول المولى سبحانه : [**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى، وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى**] {طه:124-127} .

ومعنى ذلك أن مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله ، فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح وسهولة، فيعيش عيشاً رافعاً والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا ، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق ، فعيشه ضنك وحاله مظلمة كما قال بعض العلماء : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش

(1) التفسير الكبير ، م14 ، ج27 ، ص60.

(2) في ظلال القرآن ، ج5 ، ص3081.

(3) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ج2 ، ص340.

عليه رزقه ، وقد توعد الله المسرفين في المعاصي المعرضين عن ذكر ربهم بعقوبة دنيوية وهي المعيشة الضنك في الدنيا بالإضافة إلى العقوبة الأخروية (1) .

فالحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة ضنك مهما يكن فيها سعة ومتاع إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله والاطمئنان إلى حماه ، ضنك الحيرة والقلق والشك ، ضنك الحرص والحذر ، الحر ص على ما في اليد والحذر من الفوت ، ضنك الجري وراء بارق المطامع والحسرة على كل ما يفوت ، وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله ، وما يحس راحة الثقة إلا وهو متمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولاً وعرضاً وعمقاً وسعة والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان ، ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه ، أسرف فألقى بالهدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر ، وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له فلم يبصر من آيات الله شيئاً فلا جرم يعيش معيشة ضنكاً (2) .

ثالثاً: تزيين أعمالهم لهم :

فمن العقوبات الدنيوية التي يعاقب الله بها المسرفين تزيين أعمالهم لهم وتحسينها في نظرهم وتحبيبها إلى قلوبهم وفي ذلك يقول الله سبحانه ، **[وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]** {يونس:12} .

يقول الإمام النسفي في معنى قوله تعالى **[زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]** (من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات) (3) .

ويقول الإمام النسفي : **[كَذَلِكَ]** أي مثل ذلك التزيين **[زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ]** للمجاوزين الحد في الكفر ، زين الشيطان بوسوسته **[مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]** من الإعراض عن الذكر واتباع الكفر) (4).

---

(1) انظر : الكشاف ، للزمخشري ، ج3، ص92، 93.

(2) انظر : في ظلال القرآن ، ج4 ، ص2355، 2356.

(3) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ج1 ، ص430.

(4) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، للإمام عبد الله أحمد بن محمود النسفي ، ج1 ، ص 531 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1995م.

ويقول الإمام الرازي : "الكاف في قوله تعالى **[كَذَلِكَ]** للتشبيه والمعنى كما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح المنكر زين للمسرفين ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر ومتابعة الشهوات" (1) .

ويقول الإمام بن عاشور : المراد بالمسرفين هنا الكافرين واختير لفظ (المسرفين) لدلالته على مبالغتهم في كفرهم ، وقد أسند فعل التزيين إلى الشيطان غير مرة ، أو لأن معرفة المزين لهم غير مهمة ههنا وإنما المهم الاعتبار والاتعاظ باستحسانهم أعمالهم الذميمة والمعنى أن شأن الأعمال الذميمة القبيحة إذا تكررت من أصحابها أن قصر لهم دربه تحسن عندهم قبائحها فلا يكادون يشعرون بقبحها فكيف يقلعون عنها (2) .

فمن خلال أقوال المفسرين نلاحظ أن المسرفين يتمادون في إسرافهم من غير الشعور بأن هناك حسيباً ولا رقيباً يستحسنون أعمالهم وتزين لهم أفعالهم دون الشعور بذنب أو الإحساس بخطيئة وهم لا يدرون أن ما يقعون فيه من شر أفعالهم وأقوالهم هي عقوبة دنيوية لهم على سوء إسرافهم وقبح تصرفاتهم .

رابعاً : إهلاكهم واستئصالهم :

فالهلاك والاستئصال أقسى عقوبة دنيوية يعاقب الله سبحانه وتعالى بها المسرفين ، بل ينهي بها وجودهم ويضع بها حداً لإسرافهم بعد كل العقوبات السابقة التي لم يستفيدوا منها ولم يتعظوا أو يعتبروا من إشاراتها وأماراتها وفي ذلك يقول الحق سبحانه : **[وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ، وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ، ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا المُسْرِفِينَ]** {الأنبياء:7-9}.

فقوله تعالى : **[ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوَعْدَ]** أي الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين صدقهم الله وعده وفعل ذلك ولهذا قال : **[فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ]** أي أتباعهم من المؤمنين **[وَأَهْلَكْنَا المُسْرِفِينَ]** أي المكذبين بما جاءت به الرسل (3) .

فتلك سنة الله في اختيار الرسل ومثلها سنته في إنجائهم ومن معهم وإهلاك المسرفين الظالمين المكذبين ، فهي سنة جارية كسنة اختيارهم وقد وعدهم الله النجاة هم والمؤمنين معهم إيماناً حقيقياً يصدقه العمل فصدقهم وعده وأهلك الذين كانوا يسرفون عليهم ويتجاوزون الحد

---

(1) التفسير الكبير ، م9 ، ج17 ، ص56.

(2) انظر : التحرير والتنوير، م6 ، ج11، ص112.

(3) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ج3 ، ص174.

معهم (1). وقد بين الله I في موضع آخر طريقة إهلاك المسرفين من قوم لوط u فقال سبحانه: **[لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ]** {الذاريات:33 ، 34} .

أي لنرجمنهم بحجارة من طين متحجرة ، ومعنى **[مُسَوَّمَةً]** معلمة بعلامات تعرف بها وقيل كانت مخططة بسواد وبياض ، وقيل بسواد وحمرة ، وقيل معروفة بأنها حجارة العذاب وقيل مكتوب على كل حجر من يهلك بها ، وقوله **[عِنْدَ رَبِّكَ]** أي معلمة عنده **[لِلْمُسْرِفِينَ]** المتمادين في الضلالة المتجاوزين الحد في الفجور والشرك أسرف الذنوب وأعظمها (2) .

ويقول الإمام الزمخشري : **[حِجَارَةً مِنْ طِينٍ]** يريد السجيل ، وهو طين طبخ كما يطبخ الآجر حتى صار في صلابة الحجارة ، **[مُسَوَّمَةً]** معلمة من السومة وهي العلامة على كل واحد منها اسم من يهلك به ، وقيل علمت بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا وقد سماهم مسرفين لإسرافهم في عملهم حيث إنهم لم يقنعوا بما أبيح لهم (3) .

وبهذا يتبين لنا أن الله قد عاقب المسرفين من قوم لوط في الدنيا بالهلاك والاستئصال حيث أرسل عليهم حجارة من طين معلمة بعلامات تبين وتدلل أنها عقوبة لهم على ما اقترفت أيديهم وما اجترأت عليه نفوسهم من الإسراف في الباطل والفساد .

المطلب الثاني : عقوبات المسرفين الأخروية :

أولاً : حشرهم يوم القيامة عمياناً :

حيث ينتظر المسرفين يوم القيامة عقوبة أخروية قاسية لم يكونوا يتوقعونها وهي أنهم سيحشرون عمياناً وقد كانوا مبصرين في الدنيا والذي يدلل على مفاجأتهم وذهولهم من هذه العقوبة سؤالهم عن هذا التحول والتغير الذي لم يعهدوه في الدنيا ولم يكونوا قد ابتلوا به حيث يقول سبحانه وهو يصف أحوالهم : **[وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى]**{طه:124-127} .

---

(1) انظر : في ظلال القرآن ، ج4 ، ص2369.

(2) انظر : فتح القدير ، للشوكاني ، ج5 ، ص88، 89.

(3) انظر : الكشاف ، ج5 ، ص393.

فقوله [**وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**] يحشرون على الصفة التي وصفهم الله بها وهي العمى ليكون ذلك زيادة في عذابهم ثم يعيد إليهم أبصارهم في النار ليروا العذاب بأعينهم [(1)] .

وقال مجاهد : أعمى عن الحجة ، وقيل أعمى عن جهات الخير لا يهتدي لشيء منها، وقيل من الحيلة في دفع العذاب عن نفسه كالأعمى الذي لا حيلة له فيما لا يراه ، وقوله : [**قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا**] أي في الدنيا [**قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آَيَاتُنَا**] أي قال الله تعالى له [**قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آَيَاتُنَا**] أي دلالاتنا على وحدانيتنا [**فَنَسِيتَهَا**] أي تركتها ولم تنظر فيها وأعرضت عنها [**وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى**] أي تترك في العذاب [**وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ**] أي كما جزينا من أعرض عن القرآن وعن النظر في المصنوعات والتفكر فيها وجاوز الحد في المعصية [(2)] .

ويقول الإمام الرازي : "إنه يحشر بصيراً فإذا سيق إلى المحشر عمي" [(3)] .

ويقول الأستاذ سيد قطب : "ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه ، أسرف فألقى بالهــدى من بين يديه وهو أنفس ثراء وذخر ، وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له ، فلم يبصر من آيات الله شيئاً فلا جرم يعيش معيشة ضنكا ويحشر يوم القيامة أعمى" [(4)] .

ونلاحظ من خلال هذه العقوبة الأخروية أن الجزاء من جنس العمل فكما أن من أعرض عن ذكر الله في الدنيا وأعمى بصره عن تكاليف الله وأحكام كتابه عاقبه الله بعقوبة من جنس ذنبه وهي العمى يوم القيامة وذلك على سبيل المشاكلة .

ثانياً : المسرفون هم أصحاب النار :

وهي عقوبة لمن أسرف في الحياة الدنيا فالذي قضى دنياه مسرفاً معرضاً عن آيات الله وعن ذكره يعاقب في الآخرة بأنه من أصحاب النار ، والعياذ بالله كما قال ربنا سبحانه [... **وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ**] {غافر:43} .

قال قتادة :يعني المشركين وقال مجاهد : السفاكين للدماء ، والصحيح أنهم الذين أســرفوا فـــي معصيـــة الله بالكمية والكيفية أما الكمية فالدوام ، وأما الكيفية فبالعود والإصرار[(5)] .

---

(1) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ج10 ، ص339.

(2) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ج11 ، ص276.

(3) التفسير الكبير ، م11 ، ج22 ، ص132.

(4) انظر : في ظلال القرآن ، ج4 ، ص 2356 .

(5) انظر : التفسير الكبير للرازي ، م14 ، ج27 ، ص 72 .

ويقول الإمام البيضاوي [**وَأَنَّ المُسْرِفِينَ**] في الضلالة والطغيان كالإشراك وسفك الدماء [**هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ**] ملازموها [1] .

ويقول الإمام القرطبي في معنى المسرفين في قوله تعالى [**وَأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ**] هم الذين تعدوا حدود الله كالسفهاء وسفاكي الدماء والجبارين والمتكبرين الذين هم أصحاب النار والخالدون فيها [2] .

وبهذا يتبين لنا العقوبة الأخروية للإسراف وكيف أن هذه العقوبة من جنس عمل المسرفين والمفرطين فالذي يعرض عن ذكر الله سبحانه ويسرف في المعاصي والآثام في الدنيا ويعطل نعمة البصر عن التبحر في آيـــات الكون ليخضع لخالقه وليذل لصانعه يعاقب في الآخـــرة بالعمـــى بالإضافة إلى أنه في الآخرة من أصحاب النار .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمتـــه وبفضلـــه تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله خاتم النبوات والرسالات ، وعلى آله وصحبه ومن استن بسنته واهتدى بهديه ما بقيت الأرض والسموات ... أما بعد :

فإني أحمد الله تعالى أن هداني إلى الكتابة في موضوع من موضوعات كتابه ويسَّر لي السبل للوصول إلى خاتمته فله الحمد في الأولى والآخرة وله الشكر من قبل ومن بعد .

فقد حاولت من خلال هذا الجهد المتواضع الحديث عن الإسراف في ضوء القرآن الكريم وخرجت بالنتائج التالية :

1- المعاني اللغوية للإسراف معاني شاملة عديدة حيث ورد الإسراف في اللغة بمعنى مجاوزة الحد والقصد ، والخطأ ووضع الشيء في غير موضعه وحقه ، وبمعنى الجهل والغفلة والقلة والإفساد والولوع بالشيء بينما مثل المعنى الاصطلاحي واحداً من هذه المعاني وهو مجاوزة الحد وبهذا يظهر للباحث أن المعاني اللغوية أعمُّ وأشمل من المعنى الاصطلاحي.

2- وردت لفظة أسرف ومشتقاتها في السياق القرآني في اثنين وعشرين موضعاً موزعة على واحد وعشرين آية وسبع عشرة سورة وذلك على النحو التالي:

أ- وردت لفظة أسرف ومشتقاتها في ست عشرة آية مكية موزعة على اثني عشرة سورة.

---

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ج2 ، ص342 .

(2) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، ج15 ، ص304 .

ب- وردت لفظة أسرف ومشتقاتها في ستة مواضع من كتاب الله وخمس آيات موزعة على خمس سور.

3- يتبين للباحث أن أسرف ومشتقاتها وردت في السياق المكي أكثر من ورودها في السياق المدني لأن حاجة المجتمع المكي كانت تقتضي النهي عن صور الإسراف التي استفحلت في الحياة الجاهلية فقد أكدت على النهي عن الإسراف في أموال اليتامى خاصة والإسراف في المعاصي بصفة عامة .

وأما الآيات المدنية فقد أكدت على النهي عن الإسراف في أموال اليتامى وكذلك نهت عن الإسراف في أموال الزكاة وتحدثت عن إسراف بني إسرائيل في المعاصي للكشف عن وجـــوه وأخلاق اليهود الذين كانوا يمثلون شريحة سكانية كبيرة على أرض المدينة المنورة.

4- من صور الإسراف وميادينه في القرآن الكريم الإسراف في النفقة والإسراف في الزكاة والصدقات والإسراف في القتل ، والإسراف في مال اليتامى .

5- تبين للباحث أن المسرفين الذين ذمهم القرآن على إسرافهم وخصص الحديث عنهم هم قوم نبي الله لوط **u** الذي أسرفوا في اللواط ، وفرعون وملؤه الذين أسرفوا في القتل خاصة والتكبر والاستعلاء والإفساد في الأرض بصفة عامة ، وكذلك بنو إسرائيل الذين استشرى بينهم القتل حتى طالت أياديهم الآثمة أنبياءهم ورسلهم.

6- ظهر للباحث أيضاً أن الله سبحانه وتعالى قد عاقب المسرفين بعقوبات دنيوية وأخروية ، أما العقوبات الدنيوية فهي إضلالهم وعدم هدايتهم ، وعيشهم في ضنك وتزيين أعمالهم السيئة لهم وإهلاكهم واستئصالهم ، وأما عقوباتهم الأخوية فهي حشرهم عمياناً بعد أن كانوا مبصرين في الدنيا والخلود في نار جهنم والعياذ بالله.

وفي الختام أسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يتقبل مني هذا الجهد المتواضع وأن يجعله ذخراً لي في حياتي ، وثواباً لي بعد مماتي وأن ينفع به طلاب العلم خاصة والمسلمين عامة إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

*** القرآن الكريم .**

1- أساس البلاغة – للإمام جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري – تحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود – دار المعرفة – بيروت – لبنان .
2- أسباب النزول – لأبي الحسن الواحدي – دار إحياء التراث العربي .
3- أنوار التنزيل وأسرار التأويل – للقاضي أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط1 – 1999م .
4- التحرير والتنوير - للأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور – دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس .
5- تفسير القرآن العظيم – للإمام الجليل الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي – دار إحياء الكتب العربية .
6- التفسير الكبير – للإمـــام محمد الرازي فخر الدين – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – 1993م .
7- الجامع لأحكام القرآن – لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – دار الحديث – القاهرة – الطبعة الثانية 1996م .
8- صحيح البخاري – لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري – دار الحديث – القاهرة .
9- صحيح مسلم – للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري – دار إحياء التراث العربي – بيروت .
10- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير – محمد بن علي بن محمد الشوكاني – الطبعة الثانية 1964م .
11- في ظلال القرآن – سيد قطب – دار الشروق – ط17 – 1992م .
12- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – للإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
13- لباب التأويل في معاني التنزيل – علاء الدين علي بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط1 – 1995م .
14- لسان العرب – للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور – دار صادر – بيروت .

15- مدارك التنزيل وحقائق التأويل – للإمام عبد الله أحمد بن محمود النسفي – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط1 – 1995م .
16- المسند – للإمام أحمد بن حنبل – دار الفكر العربي .
17- معجم مقاييس اللغة – مجمع اللغة العربية – الطبعة الثالثة .